

الباب الخامس والعشرون

مصر والغرب

الفضل الأول

سجل الملوك

كانت أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها من نصيب أقدر قواده وأعظمهم حكمة . وقد برهن بطليموس بن لاجوس على ولائه العظيم للملك المتوفى - ولعله أراد أن يدعم سلطانه بهذا الولاء - بأن نقل جثته إلى منفيس وأمر أن تودع تابوتاً من الذهب (*) وجاء معه أيضاً بتاييس Thais التي كانت عشيقة الإسكندر في بعض الأوقات ، وتزوجها ورزق منها بولدين . وقد كان بطليموس هذا جندياً بسيطاً ، صريحاً ، خشن الطباع ، قادراً على الإحساس الكريم والتفكير الواقعي . وبينما كان غيره من ورثة ملك الإسكندر يقضون نصف حياتهم في الحروب ، ويحلمون بأن تكون لكل منهم دون غيره السيادة على هذا الملك ، بذل بطليموس جهوده كلها في تدعيم مركزه في البلد الأجنبي الذي كان من نصيبه ، وفي ترقية زراعته وتجارته وصناعته . وأنشأ لذلك أسطولا عظيماً وأمن مصر من الغزو البحري كما أمنها الطبيعة من الغزو البري ، وجعلتها من هذه الناحية أمنع من عقاب الجو . وساعد رودس وعصب المدن المتحالفة على الاستقلال عن مقدونية ، ومن أجل هذا سمي «سوتر Soter» . ولم يلقب نفسه ملكاً إلا بعد ثمانية عشر عاماً من العمل الشاق دعم في خلالها

(*) وقد أمر بطليموس فلدلفس أن ينقل التابوت إلى الإسكندرية ، وأذاب بطليموس هذا الذهب لينتفع به وعرض جثة الإسكندر في تابوت من الزجاج .

حياة مملكته الجديدة من النواحي السياسية والاقتصادية ، وأقامها على نظام ثابت متين (٣٠٥) . وكانت نتيجة جهود خلفه أن بسطت مصر حكمها على قورينة ، وكريت ، وجزائر سكلديز ، وقبرص ، وعلى سوريا ، وفلسطين ، وفينيقية وساموس ، ولسبوس ، وسمثريس ، والهلسنت . وقد وجد في شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات صادقة صدقاً مدهشاً على حروبه ، وأن ينشئ حوالى عام ٢٩٠ دار العاديات والمكتبة اللتين قامت عليهما شهرة الإسكندرية . ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره وأحس بضعف الشيخوخة أجلس ابنه الثانى بطليموس فلدلفس مكانه على العرش وأسلمه زمام الحكم ، واتخذ مكانه كأحد الرعايا في بلاط الملك الشاب . ومات بعد عامين من ذلك الوقت .

وكان وادى النيل الخصيب وداله قد ملأ خزائن الملك بالمال . وحسبنا دليلاً على هذا أن بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر إلى أن يقترض آتيهم الفضية وطانفسهم ، أما بطليموس الثانى فقد أنفق في آخر حفلات تنويجه ما قيمته ٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى (٢) . واعتنق الملك المصرى الحديد فلسفة قورينة واعترم أن يستمتع بكل ما تتيحه له الساعة التى هو فيها من لذة . فكان يتخم معدته بشهى الطعام ، وجرب كثيراً من العشيقات ، وأقصى عنه زوجته ، وتزوج آخر الأمر بأخته أرسينوئى (٣) Arsinoë . وحكمت الملكة الحديدية الإمبراطورية وصرفت شئونها الحربية بينما كان بطليموس الثانى يحكم بين طهاته وعلماء بلاطه . وحلنا حذوأييه وزاد عليه بأن استقدم إلى الإسكندرية مشهورى الشعراء ، والعلماء ، والنقاد ، والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفة ، والفنانين ، واستضافهم عنده ؛ وزين عاصمته بالمباني الفخمة على الطراز اليونانى حتى صارت الإسكندرية فى أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية ، وازدهرت آدابها ازدهاراً لم تر مثله مرة (٦ - قصة الحضارة - ج ٣ ، مجلد ٢)

أخرى . لكن فلدلفس لم يكن مع هذا كله سعيداً في شيخوخته . فقد اشتد عليه داء النقرس ، وزادت متاعبه بازدياد ثروته وسلطانه . وأطل مرة من نافذة قصره فأبصر متسولاً يرقد مستريحاً في الشمس على كتيبان الميناء الرملية ، فحسد الرجل على نعمته ، وقال متحسراً : « وا أسفاه ! ليتني ولدت واحداً من هؤلاء (٤) ! » . وساوره خوف الموت ، فطلب إلى الكهنة المصريين أن يدلوه على إكسير الخلود السحري (٥) .

ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده يقولون إنه هو الذي أنشأهما . وكان دمتريوس فليرم قد لحاً إلى مصر في عام ٣٠٧ بعد أن طرد من أثينة ، فلإذا نحن نجده بعد عشر سنين من ذلك الوقت في بلاط بطليموس الأول ، ويلوح أنه هو الذي أوحى إلى بطليموس سوتر أن عاصمة ملكه وأسرته تليح شهرتهما إذا أنشأ متحفاً (أى بيتاً لزبات الفنون والعلوم Muses (٦)) يضارع جامعات أثينة . وأكبر الظن أن دمتريوس قد ألهم نشاط أرسطو في جمع الكتب ، وضروب المعرفة ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، ودرسات الحكيم ، وتصنيف ما جمعه منها ، فأشار على ما يظهر بأن تقام طائفة من المباني لا تتسع لإيواء مجموعة عظيمة من الكتب فحسب ، بل تتسع فوق ذلك لإيواء العلماء الذين يقضون حياتهم في البحث العلمي . واقتنع بطليموس الأول والثاني بهذه الفكرة ، فأمداه بالمال ، وقامت الجامعة الجديدة على مهل بالقرب من القصور الملكية . وكانت تحتوى على ردهة عامة يلوح أن العلماء كانوا يتناولون فيها الطعام ، وقاعة للمحاضرات ، ونبهوا ، ورواقاً ، وحديقة ، ومرصداً فلكياً ، والمكتبة الكبرى . وكان رئيس هذا المعهد كله من الناحية الرسمية كاهناً دينياً ، لأنه كان مخصصاً لإلهات الفن بوصفها

(*) هذا هو المعنى الحرفي لفظ Museum . (المترجم)

معبودات بحق . وكان يعيش في المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين ، وكتاب ، وعلماء في الطبيعة ، وأطباء . وكان هؤلاء كلهم من اليونان ، وكانوا جميعاً يتقاضون مرتبات من الخزانة الملكية . ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب ، بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات وإجراء التجارب . ولما تضاعف عدد الطلاب في المتحف في العقود التالية ، قام أعضاؤه بإلقاء المحاضرات ، ولكنه بقي إلى آخر أيامه معهداً للدراسات الراقية أكثر مما كان جامعة للطلاب . ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم ، وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من البطالة ومن الإسكندرية .

ومات بطليموس فلدلفس عام ٢٤٦ بعد حكم طويل قام فيه بكثير من جلائل الأعمال . وكان بطليموس الثالث أورجيتيس Euergetes (المحسن) ملكاً من طراز تحتمس الثالث نيغى فتح بلاد الشرق الأدنى . فبدأ بالاستيلاء على سرديس وبابل ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بلاد الهند ، وزرع كيان الإمبراطورية السلوقية حتى انهارت حين مستها جيوش رومة . ولسنا نريد أن نتبع حادثات حروبه ، لأنها ، وإن كانت في تفاصيلها أشبه الأشياء بالرواية التمثيلية ، كانت في أسبابها ونتائجها موحشة لا أحد لو حشها ؛ وإن تاريخ الحروب إذا قص أصبح تابعاً ذليلاً لتقلبات القوة والسلطان تلغى فيها الانتصارات والهزائم بعضها بعضاً فتجعله تاريخاً أجوف لا قيمة له . وحسبنا أن نقول إن برنيس Berenice زوجة أورجيتيس الشابة عبرت عن شكرها لانتصاراته بأن وهبت خصلة من شعرها للآلهة ؛ وتغنى الشعراء بهذه القصة ، ورفع الفلكيون عقيرتهم بها إلى السماء فسموا لإحدى المجموعات النجمية باسم كوما برنيسيز Coma Berenices أى شعر برنيس .

وكان بطليموس الرابع فلوطاثر يحب أباه حباً حمله على أن يحذو حذوه في

- حروبه وانتصاراته . ولكنه أحرز النصر على أنتيوخوس الثالث في رافيا (٢١٧) باستخدام جيوش مصرية ، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها البطالمة هؤلاء الجنود ، فلما أن تسلم المصريون على هذا النحو وشعروا بقوتهم بدأوا يقوضون سلطان اليونان في وادي النيل . وانغمس فلوباتر في اللهو ، وقضى كثيراً من الوقت في قارب نزهته ، وأدخل عيد البكاناليا في مصر ، وكاد يقنع نفسه بأنه من نسل ديونيشس . وقد حدث في عام ٢٠٥ أن قتلت عشيقته زوجته ، ولم يلبث فلوباتر نفسه أن اختفى هو الآخر من التاريخ . وأعقب موتة فترة من الفوضى أوشك فيها فليب الخامس المقدوني وأنتيوخوس ، الثالث السلوق أن يمزقا أوصال مصر ويضامها إلى بلادها ، ولكن رومة التي عقد معها بطليموس الثاني معاهدة صداقة - تدخلت في الأمر وهزمت فليب ، وأرغمت أنتيوخوس على أن يعجل بالعودة إلى بلاده وبسطت حمايتها على مصر (٢٠٥) .

الفصل الثاني

الاشتراكية في عهد البطالة

إن أهم ما يعيننا في مصر البطالة هو تجربتها الواسعة في الاشتراكية الدولية . لقد كانت ملكية الأرض من زمن بعيد عادة مقدسة في مصر ، وكان لفرعون ، بوصفه ملكا ولها ، حق كامل على الأرض وعلى كل ما تنتجه . ولم يكن الفلاح عبدا ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك مكانه إلا بإذن الحكومة ، وكان يطلب إليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدولة (٦) . وأبقى البطالة على هذا النظام ووسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضي الواسعة التي كانت في عهد الأسر الحاكمة السابقة ملكا للأعيان المصريين أو للكهنة . وكانت هيئة بروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين ، يوئدها حراس مسلحون ، تدبر شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة (٧) . وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل زارع تقريبا قطعة الأرض التي ينبغي له أن يزرعها ، والمحصولات التي يجب أن ينتجها ، وكان في وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل في المناجم ، وإقامة المباني العامة ، والصيد ، وشق قنوات الري ، وإنشاء الطرق . وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ؛ ويدون الكتبه مقدارها ، وتدرس في أجران الملك ، ويحملها الفلاحون أنفسهم إلى مخازن الملك (٨) . وكان يستثنى من هذا النظام بعض حالات : فقد كان البطالة يميزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ، ويميزون الملكية الخاصة في الحواضر ، ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود يكافئونهم بها على ما قدموا للدولة من خدمات . ولكن هذه الأراضي المستأجرة كانت مقصورة في العادة على المساحات التي يوافق صاحبها على أن يخصصها للكروم ، أو البساتين ، أو أشجار الزيتون ، ولم يكن

يسمح له أن يورثها أبناءه أو أن يوصى بها لمن يشاء ؛ وكان للملك أن يلغى حق الإيجار متى أراد . ولما تحسنت حال هذه الأرض التي يشترك في ملكيتها الفرد والدولة بفضل جهود اليونان ومهارتهم ، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها أبناءهم . وكان العرف لا القانون يجيز هذا التوريث في القرن الثاني ، ثم اعترف به القانون في القرن الأول قبل الميلاد^(٩) ، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة .

وما من شك في أن تطور هذا النظام الاشتراكي الحكومي، قد حدث لأن أحوال الزراعة في مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل في الزمان والمكان أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية ، وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار الفيضان السنوي . وكفاية نظام الري والصرف ، وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية . وقد عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين الأساليب القديمة ، واستخدموا في زراعة الأرض وسائل أكثر انطباقا على العلم وعلى الإنتاج الضيق الوفير ، فاستبدل بالشادوف « الناعورة » أو « الساقية » ، وهي عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحيانا أربعين قدما تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافها الخارجية^(*) فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان في العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء في حوض . وخير من هذه الآلة « لولب أركيدين^(**) » ومضخة تسيبوس⁽⁺⁾ وهما يرفعان الماء بسرعة لم تكن معروفة قبل عصر البطالمة ، ويفضل تركيز الإدارة الاقتصادية في يد الحكومة ونظام السخرة أمكن إقامة المنشآت العامة للتبجكم في فيضان النيل ، وإنشاء الطرق ،

(*) في الأصل الإنجليزي الداخلية ولكن ما أثبتناه هنا هو الصحيح ولا تزال هذه الآلة مستعملة في ريف مصر إلى الآن . (المترجم)

(**) هذا هو المعروف عندنا بالطنبور .

(+) انظر الباب السابع والعشرين .

وشق قنوات الري ، وتشبيد المباني ، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التي تمت في أيام الحكيم الروماني . وقد جفف بطليموس الثاني بحيرة موريس وحول قاعها إلى مساحة واسعة من الأرض الحصبة وزعها على جنوده ، وشرع في عام ٢٥٨ يعيد فتح القناة التي تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس (١١) . وكان نحاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل ، ولكن الرمال في كلتا الحالين طمرتها ، كما طمرت قناة بطليموس بعد مائة عام من شقها .

وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لهذه الظروف ، فلم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب ، بل كانت تديرها بنفسها أو تستولى على ما يخرج من المعادن (١٢) . واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية في بلاد النوبة ، وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة ؛ وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس في قبرص وطور سيناء ، ويحتكرون صناعة الزيت -- ولم يكونوا يستخرجونه من الأرض ، بل كانوا يعصرونه من النبات كبذور الكتان وحب الملوك (الكروتن) ، والسمسم ؛ وكانت الحكومة تحدد في كل عام مقدار ما يزرع من الأرض بهذه النباتات ، وتستولى على المحصول بالثمن الذي تحدده له ، وتعصر الزيت في مصانع تمتلكها الدولة بعصارات من كتل الخشب الضخمة يحركها أبقان الأرض ، ثم تباع الزيت إلى تجار التجزئة بالثمن الذي تريده هي ، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية ؛ وكانت أرباحها من هذه العملية تتراوح بين سبعين وثلثمائة في المائة (١٣) . وياوح أن الحكومة كانت تجني أرباحاً مماثلة لهذا الربح من الملح ، والنظرون (كربونات الصودا المستخدمة في صنع الصابون) ، والبخور ، والبردى ، والمنسوجات . وكانت في البلاد مصانع للنسيج يمتلكها الأفراد ، ولكنها كانت تضطر إلى بيع كل ما تنتجه إلى الحكومة (١٤) . أما الصناعات الصغرى فقد تركت للأفراد ، وكانت الدولة تكتفي بالتصريح بها

ومراقبتها ، وابتياح جزء كبير من منتجاتها بالثمن الذى تحدده لها ، وفرض ضريبة طيبة على أرباحها تجبى لخزانتها . وكانت الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية ، وكانوا يحكم هذه التقاليد نفسها مرتبطين بقراهم وبمنازلهم أيضاً^(١٥) . وكانت الصناعة متقدمة ، فكانت العربات ، وقطع الأثاث ، والفخار ، والأبسطة ، ومواد التجميل تصنع بكميات كبيرة ؛ وكان صنع الزجاج ونسج التيل من الصناعات التى اختلفت بها الإسكندرية . وكانت الاختراعات أكثر تقدماً فى مصر فى عصر البطالمة منها فى أى عصر آخر قبل رومة الإمبراطورية . وكانت الأدوات اللولبية والتروس ، وطارات السيور ، والضاغطات اللولبية ، كانت هذه كلها معروفة مستعملة^(١٦) ؛ وتقدمت كيمياء الصباغة إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش فى صبغة واحدة ننتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة^(١٧) . وكانت مصانع الإسكندرية يديرها العبيد عادة ، وكانت نفقاتهم القليلة تمكن البطالمة من أن يبيعوا منتجاتها فى الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية^(١٨) .

وكانت الحكومة تشرف على التجارة بأجمعها وتنظم شئونها . فكان بائعو الأشنات عادة وكلاء معينين من قبل الدولة لتوزيع بضائع الدولة^(١٩) ، وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية . وقد أدخل بطليموس الثانى الحمل فى مصر وأقام مخزناً من راكبي الجمال فى جنوب القطر ؛ يتولى نقل المخابرات الحكومية دون غيرها ؛ ولكن هذه المخابرات كانت تشمل الرسائل التجارية كلها تقريباً . وكان نهر النيل غاصباً بسفن الركاب والبضائع ، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكاً للأفراد وخاضعة لأنظمة الدولة^(٢٠) . وقد أنشأ البطالمة لتجارة البحر الأبيض المتوسط أعظم أسطول تجارى فى ذلك الوقت ، وكانت حمولة السفينة الواحدة من سفنه تبلغ ثلثمائة طن^(٢١) . وكانت مخازن

الإسكندرية تستهوى التجارة العالمية ، وكان مرفأها المزدوج مما تحسدها عليه سائر المدن ، كما كانت مناراتها من عجائب الدنيا السبع (*) . وكانت حقول مصر ومصانعها كبيرة وصغيرة تنتج قدرأ كبيرأ من الغلات الزائدة على حاجة البلاد تباع في الأسواق النائية التي تصل إلى الصين شرقأ ، وإلى أواسط إفريقية جنوبأ ، وإلى روسيا والجزائر البريطانية شمالا . وقد سار الرواداء المصريون جنوبأ حتى بلغوا زنجبار وبلاد السومال ونقلوا إلى العالم أخبار سكان الكهوف الذين يعيشون على سواحل إفريقية الشرقية ويقتاتون بالأطعمة البحرية ، والنعام ، والخزر ، وجذور النبات (٢٤) . واستطاعت السفن المصرية أن تقضى على سيطرة العرب على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى بسيرها من النيل إلى الهند مباشرة ، وأضححت الإسكندرية بتشجيع البطالمة وحكمتهم أهم الثغور التي يعاد منها شحن البضائع المرسله إلى أسواق بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان مما زاد في سرعة نماء التجارة والصناعة وازدهارهما ما قدمته المصارف المالية من تسهيلات عظيمة . لقد بقي في مصر حتى ذلك الوقت قدر من المقايضة ورثته البلاد من العهود القديمة : وكانت الحبوب المحفوظة في المخازن الملكية بمثابة رصيد احتياطي للمصارف ؛ ولكن إيداع الحبوب وسحبها ، وتحويلها من يد إلى يد كان في الاستطالة إتمامها على الورق بدل إجراء هذه العمليات

(*) ويقول ستراتس النيدى Sostratus of Cnidus إن الذي أقامها هو بطليموس الثاني وإنه أنفق في تشييدها ثمانمائة وزنة (نحو ٢٤٠٠٠٠٠ ريال أمريكي (٢٢)) . وكانت تعلق بدرج متراجمة إلى ارتفاع أربعمائة قدم ، وينطها الرخام الأبيض وازينها تماثيل من الرخام والبرنز . وقد وضع فوق القبة المقامة على الأعمدة والتي كانت تحمل الضوء تماثيل لهيدين يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدما . وكان هذا الضوء ينبعث من نار وقودها خشب راتنجي ؛ والراجع أن مرايا محدبة كانت تمكسه بحيث يرى على بعد ثمانية وثلاثين ميلا (٢٣) وقد تم بناء المنارة في عام ٢٧٩ ق . م وهدمت في القرن الثالث عشر الميلادي . وعمل جزيرة فاروس التي كانت مقامة عليها هو الآن حى رأس التين بالإسكندرية . أما موضع المنارة نفسه فقد عمره ماء البحر .

بالفعل (٢٥) . وقد قام إلى جانب هذه المقايضة المعدلة نظام اقتصادى نقدى معقد . وكانت الحكومة تحتكر لنفسها إنشاء المصارف ، ولكن كان فى وسعها أن تنيب عنها فى أعمالها شركات خاصة (٣٦) . وكانت الحسابات تدفع بتحويلات مما لأصحابها فى المصارف من أرصدة ؛ وكانت المصارف تقرض المال بالربا ، وتسدد حسابات الخزائن الملكية . وقصارى القول أننا لانعرف فى التاريخ كله عهداً بلغت فيه الزراعة ، والصناعة والتجارة ، والمالية ، ما بلغتة كلها فى هذا العهد من ثراء ، ووحدة ، ونماء خال من العاطفة الإنسانية .

وكان المشرفون على هذا النظام ومفلسوه هم اليونان الأحرار المقيمون فى العاصمة . وكان على رأسهم كلهم فرعون - الملك - الإله . وكان بطليموس فى نظر سكان بلاد اليونان منقذاً Soter ، أو محسناً Euergetes بحق ، فقد وهبهم مائة ألف منصب حكومى وأتاح لهم فرصا اقتصادية لا حد لها ، ويسر لهم سبل الحياة العقلية تيسيراً لا عهد لهم به من قبل ، وأوجد لهم بلاطاً كان مصدر الحياة الاجتماعية المترفة ومركزها . ولم يكن الملك نفسه ملكاً مستبداً لا يسأل عما يفعل ؛ فقد اجتمعت التقاليد المصرية والشرائع اليونانية على إقامة نظام تشريعى أخذت بعضه عن القانون الأثينى وحسنت فيه من جميع نواحيه ما عدا ناحية الحرية . وكان لأوامر الملك قوة القانون بأكملها ؛ ولكن المدن كانت تستمتع بقسط كبير من الحكم الذاتى . وكانت الجماعات المصرية . واليونانية . واليهودية . تخضع كل منها لشرائعها الخاصة ؛ وتختار قضاتها . وتحاكم أمام محاكمها (٢٧) . وفى تورين بريدية سجلت فيها إحدى قضايا الإسكندرية . وقد حدد فيها موضوع النزاع تحديداً دقيقاً ، وعرضت فيها الأدلة بعناية فائقة . ونخصت السوابق ، ثم صدر الحكم بالنزاهة المطلوبة من القضاة . وثمة بريدات أخرى سجلت فيها وصايا أهل الإسكندرية ، وهى تزيح الستار عن قدم الصبيغ

والعبارات القانونية : « هذه هي وصية بيزياس Peisias اللوشيانى ابن س ،
الكامل العقل ، الحر الاختيار (٢٨) » .

وكانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاما فى العالم الهلنستى .
وقد أخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس ، واستقلال مدنها بشئونها
الخاصة عن بلاد اليونان ، ثم أخذتها عنها رومة . وقد قسمت البلاد إلى أقاليم ،
يدير كلًّا منها موظفون يعينهم الملك ، وكانوا كلهم تقريبا من اليونان . وقد أغفل
البطالمة ما كان يعتزمه الإسكندر من جعل اليونان والشرقيين أو المصريين
يعيشون ويختلطون على قدم المساواة بعد أن تبين لهم أن هذه الفكرة غير
اقتصادية ، وأصبح وادى النيل فى ظاهر الأمر وباطنه يحكم كما يحكم
البلاد المفتوحة ، فقد أدخل المشرفون اليونان على حياة مصر الاقتصادية
كثيراً من الرقى فى النواحي الفنية والإدارية ، وزادوا ثروة البلاد من الناحية
الاقتصادية ، ولكنهم استولوا على ما زاد من هذه الثروة . ورفعت الدولة
أثمان الغلات التى كانت تسيطر عليها ، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض
الضرائب الجمركية العالية ، فكان ما يباع من زيت الزيتون بإحدى وعشرين
درهما فى ديلوس يباع بائنتين وخمسين فى الإسكندرية . وكانت الحكومة فى
كل مكان فى البلاد تجبى الضرائب وإيجار الأرض ، والرسوم الجمركية ،
وعوائد المرور على الطرق ، وتستولى من الناس أحيانا على جهودهم وحياتهم
نفسها . وكان الفلاح يؤدى للدولة أجرا على امتلاك الماشية ، وعلى ما يقدمه
لها من علف ، وعلى الإذن له برعيها فى أرض الكلا العامة . وكان ملاك
الحدائق ، والكروم ، والبساتين ، من الأفراد يؤدون للدولة سُدس منتجاتها
(وفى أيام بطليموس الثانى نصف هذه المنتجات) (٢٩) . وكان الأهليون كلهم ،
ما عدا الجنود ، ورجال الدين ، ووظفى الحكومة ، يؤدون فريضة الرؤوس .
وكانت الضرائب مفروضة على الملح ، والمحترات الرسمية ، والموارث . وكانت
تفرض على الإيجارات ضريبة قدرها خمسة فى المائة منها ، وعلى المبيعات عشرة

في المائة من أثمانها ، وخمسة وعشرون في المائة على الأسماك المصيدة في المياه المصرية ، وعوائد على البضائع التي تنقل من القرى أو المدن أو تنقل بطريق النيل . وكانت رسوم عالية تفرض في الثغور المصرية على جميع الصادرات والواردات ؛ وكانت ضرائب خاصة تفرض للإنفاق على الأسطول والمنارة البحرية ، ولترفيه عن أطباء البلديات ورجال الشرطة ، ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد^(٢٠) . وقصارى القول أن الدولة لم تكن تترك شيئاً يسمها إلا فرضت عليه ضريبة . وقد احتفظت الدولة بجيش من الكتبة ، وبنظام واسع من التسجيل للأشخاص والأموال ، لتستطيع بهما إحصاء جميع الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التي يصح فرض الضرائب عليها . أما جباية هذه الضرائب فقد كانت تعهد إلى جماعة من الإخصائين ، تراقب هي أعمالهم ، وتجعل أملاكهم ضماناً تحت يدها حتى يؤدوا لها حقها . والراجح أن مجموع إيرادات البطالة نقداً وعينا كان أكبر ما جمعته دولة من الدول في الفترة المحصورة بين سقوط دولة الفرس وعظمة رومة .



(شكل ٥٢) أفردیق سیرینی (متحف رومة)

الفصل الثالث

الإسكندرية

وكان الجزء الأكبر من هذه الثروة يرد إلى الإسكندرية ، وكانت عواصم الأقاليم وقلة من المدن الأخرى تستمتع أيضا بالرخاء ، فكانت أرضها مرصوفة وشوارعها مضاعة ، وكانت لها شرطة تحمى أهلها ، وكانت تمتد بالماء النقي ؛ ولكن الإسكندرية بنوع خاص كانت تستمتع بنظام « حديث » لم يعهد له مثيل من قبل ، ويصفها استرابون في القرن الأول بعد الميلاد فيقول إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال في الطول وميلا في العرض ؛ ويقدر بلني طول أسوارها بخمسة عشر ميلا (٢١). وقد اختط المدينة ديمقراطس المهندس الرودسي ، وسترانس النيدى على شكل مستطيل في وسطه شارع رئيسي يبلغ عرضه مائة قدم يمتد من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر في مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال . وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاءان ليلا وتظللهما أثناء النهار أميال من العمد . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدها نحو الغرب حي ركوتس Rhacotis وكانت كثرة سكانه من المصريين ؛ وكان الحي الشمالي الشرقي حي اليهود ، والجنوبي الشرقي أو البركيوم Brucheum يحتوي على القصر الملكي ، والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية ، وكثير من الحدائق الفسيحة . وكان لإحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ستمائة ق. م . وكانت حديقة أخرى تحتوي على مجموعة الحيوانات الملكية . وكان في وسط المدينة مباني الإدارات والمخازن الحكومية ، والمحكمة ، وهدسة الألعاب الرياضية ، وألف حانوت وسوق .

وكان في خارج الأبواب الكبرى. ملعب رياضى ، وميدان للسباق ، ومدج ، ومقبرة عظيمة تعرف بمدينة الموتى (Necropolis) (٢٣) . وكانت تمتد على طول شاطئ البحر مقاصير للاستحمام والاصطياف . وكان يصل المدينة بجزيرة فاروس جسر أو حاجز يسمى الهبتستاديوم Heptastadium لأن طوله كان يبلغ سبعة استديومات (*) ، وكان المرفأ مرفأين . وكانت تقع خلف المدينة بحيرة مريوط ، وتستخدم مرفأئى ومخارج للسفن النيلية . وفي هذه البحيرة كان البطلمة يحتفظون بقوارب التنزه ، ويقضون ساعات الراحة من عناء الأعمال (**).

وكان سكان الإسكندرية في عام ٢٠٠ ق . م خايطا من أجناس مختلفة كما هى حال سكان العواصم في هذه الأيام . وكانت عدتهم تراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف من المقدونيين ، واليونان ، والمصريين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الأناضول ، والعرب ، والزنج (+) (٢٣) . وزاد انتشار التجارة عدد أفراد الطبقة الوسطى - الدنيا وملاأ العاصمة المختلطة السكان بطائفة نشيطة ، وثرثرة ، متشاحنة من أصحاب الحوانيت والتجار . ، لانفعل لهم عين عن اقتناص أية فرصة لعقد الصفقات التجارية غير مراعين في ذلك شرفا أو أمانة . وكان على رأس هذه الطوائف السالفة الذكر المقدونيون واليونان ، يعيشون عيشة بلغت من الترف حدا أدهش السفراء الرومان الذين عينوا في بلاط ملوك مصر عام ٢٧٣ . ويذكر أثنيوس أصناف الأطلعمة الشبيهة التى كانت تثقل مواثد هؤلاء السادة ومعداتهم (٢٤) ،

(*) الاستديوم مقياس يونانى يبلغ طوله ٦٠٠ قدم يونانية أو ٥٨٢ قدم إنجليزية .
(**) ولا يكاد يوجد الآن من الإسكندرية القديمة إلا عدد قليل من سرايب الموق الأعمدة . وإذا كانت آثار هذه المدينة تحت الإسكندرية الحالية مباشرة ، فإن أعمال الحفر لكشف عنها تكون عظيمة النفقة . وأكبر الظن أن هذه الآثار قد هبطت إلى ما تحت مستوى ماء البحر . ولا شك أن البحر الأبيض المتوسط قد غمر أجزاء من المدينة القديمة .
(+) وكان عدد سكان الإسكندرية في عام ١٩٢٧ هو ٥٧٠.٠٠٠ .

ويقول عنهم هروداس Herodas إن الإسكندرية هي بيت أفرديتي ، وإن الإنسان ليجد فيها كل شيء - ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ، ومعادن ثمينة ، وشبانا ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيبا ، ومجمعا للعلوم ، وخرما للذيذة ، ونساء حسانا (٣٥) . وكان شعراء الإسكندرية قد أخذوا يكشفون ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن كتابها القصصيون موضوعا لكثير من قصصهم ، كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنهى بها هذه القصص . غير أن المدينة قد اشتهرت في ذلك الوقت بسماحة نساءها وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى لقد شكى بوليوس من أن أجل البيوت الخاصة في الإسكندرية تمتلكها العاهرات (٣٦) . وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريرتهن في الشوارع ، ويتبعن حرائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال . وكان منهن أديبات وعالمات مشهورات (٣٧) . وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من أرسينوثي زوجة بطليموس الثاني إلى كليوباترة يقمن بدور هام في الشؤون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب ، ولكنهن قد احتفظن بما يكفي من الجمال والفتنة لإثارة الرجال لأعمال من الشهامة والبطولة لامثيل لها من قبل ، في عالم الشعر والنثر على الأقل إن لم يكن في واقع الأمر ، وقد أدخلن في مجتمعات الإسكندرية عنصرا من الظرف والرشاقة النسوية لم يكن معروفا في بلاد اليونان أيام مجدها .

والراجح أن نحو خمس سكان الإسكندرية كان وقتئذ من اليهود . ولقد كان في مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد مواطنين للبرانيين ، ثم قدم إليها كثيرون من تجار اليهود في أعقاب الفتح الفارسي ؛ وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم ، كما يقول يوسفوس ، أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية (٣٨) . وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على اورشليم بألاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراهم (٣٩) ، ثم دعا (٤ - قصة المغارة ، ج ٤ ، مجلد ٢)

في الوقت نفسه كثيراً من أثرياء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية^(٤٠) . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادي حتى بلغ عدد اليهود في مصر مليوناً من الأنفس^(٤١) ، يعيش عدد كبير منهم في الحى اليهودى من العاصمة . لكنهم لم يكونوا مرغبين على الإقامة في هذا الحى ، بل كان لهم مطلق الحرية في الإقامة في أى حى من أحيائها عبداً البروكيوم Bruchium الذى كان مقصوراً على أسر الموظفين ومن يخدمونهم . وكانوا يختارون لأنفسهم مجالس كبارهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام أنياس Anias حاخامهم الأكبر في عام ١٦٩ هيكلاً عظيماً في لبوتوبوليس Leontopolis إحدى ضواحي الإسكندرية ، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية ، ومن ثم أطلق عليها من يتكلمون اللغة اليونانية من اليهود اسم سيناجوجاى أى أمكنة الاجتماع . وإذا لم يكن في مصر من بين اليهود المصريين بعد الحيل الثاني أو الثالث إلا أقلية ضئيلة تعرف اللغة العبرية ، فإن قراءة الشريعة كان يتلوها شرح لها باللغة اليونانية ، ومن هذه الشروح والتطبيقات نشأت عادة قراءة المواعظ من نصوص مكتوبة ، كما نشأت من هذه الشعيرة الدينية أولى أشكال القداس الكاثوليكي^(٤٢) .

ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافة إلى المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية في أواخر ذلك العصر . ذلك أن المصريين واليونان قد اعتادوا جميعاً وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافي عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصناع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولم يكونوا يطبقون نشاطه وصبره وحذقه ؛ ولما أن أخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود هم الذين ينقلون هذه البضاعة في أساطيلهم^(٤٣) . وأدرك اليونان عجزهم عن صبغ

اليهود بالصبغة الإغريقية ، فأوجسوا خيفة على مستقبلهم في دولة تستمسك الكثرة الغالبة من أهلها بشرقيتها وتتكاثر بسرعة كبيرة . ونسى اليونان تشريع بركليز ، فأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم الزواج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، ومن أن معظم اليهود لا يختلطون بغيرهم . وكثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية ، ونشر مانيثون المؤرخ المصرى القصة القائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو الجذام^(٤٣) ، واشتدت الأحقاد من كلا الجانبين حتى أدت في القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخربة .

وبذل اليهود غاية جهدهم لتخفيف حدة الغضب من عزلتهم الاجتماعية ونجاحهم في أعمالهم المالية والتجارية ، فأخذوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وإن ظلوا متمسكين بدينهم ، كما أخذوا يدرسون الآداب اليونانية ويكتبون فيها ، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية . ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهودى الذى لا يعرف العبرية من قراءة كتبه المقدسة ، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية في عهد بطليموس الثانى على الأرجح ، ترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية . وسر الملوك من ذلك العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدي هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالاً عن اورشليم مما كانوا حتى ذلك الوقت ، وأن يقل تسرب الأموال اليهودية — المصرية إلى فلسطين . وتقص لإحدى القصص الخرافية كيف دعا بطليموس فلدفنس ، عملاً مشورة دمتریوس القاليرى ، سبعين عالماً من علماء اليهود إلى الحجىء من بلادهم في فلسطين في سنة ٢٥٠ ، وكلفهم بترجمة كتبهم المقدسة ، وكيف أسكن الملك كل واحد من هؤلاء العلماء في حجرة خاصة بجزيرة فاروس ، ولم يسمح له بالاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة ؛ فلما فرغ السبعون من ترجماتهم وجدها تتفق

بعضها مع بعض في كل كلمة ، فدل ذلك على أن هذه النصوص موحى بها من عند الله ، وأن المترجمين أنفسهم قد أوحيت الترجمة إليهم ، وكيف نفح الملك هؤلاء العلماء بعبايا قيمة من الذهب . وتروى القصة في نهايتها أن الترجمة اليونانية للتوراة العبرية قد عرفت لهذا السبب باسم - الشروح عن السبعين *hermeneia keata tous hebdomebkonta* وباللاتينية (*seniorum*)

Interpretaio Selpuaginta أو في كلمة واحدة *Septuagint* (*) ، (٤٤)

وأيًا كانت طريقة الترجمة فيبدو أن أسفار موسى الخمسة قد ظهرت باللغة اليونانية قبل نهاية القرن الثالث ، وأن كتب الأنبياء قد ظهرت بهذه اللغة في القرن الثاني ؛ وهذا هو الكتاب المقدس الذي استعان به فيلو وبولس الرسول . وأخضقت عملية الأغرقة في مصر إخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ؛ وكان سبب هذا الإخفاق أن المصريين في خارج الإسكندرية عضوا بالتواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم أو عريهم ، وعلى أساليبهم التي ورثوها من أقدم الأزمنة . يضاف إلى هذا أن اليونان كانوا يرون أنهم فاتحون وليسوا كغيرهم من الخلق ؛ ولم يهتموا بإقامة مدن يونانية جنوب الوجه البحرى . أو يتعلم لغة المصريين ، كما أن قوانينهم لم تكن تعترف بالزواج بين المصريين واليونان . وقد حاول بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليونانى والمصرى بقوله إن سراس وزپوس إله واحد ؛ وشجع من جاء بعده من البطالمة أهل البلاد على أن يتخلوهم آلهة يعبدونها لكي يقدموا بذلك للأهلين المختلفى الأجناس معبودا مشتركا لا يلقون صعوبة في عبادته . ولكن المصريين الذين لم يكن لهم مطامع في المناصب العامة لم يلقوا بالا لهذه العبادات المصطنعة . وأما الكهنة

(٥) وهذه القصة مرجعها خطاب يقال إنه بخط كاتب يدعى أرسطياس *Aristeas* عاش في القرن الأول الميلادى . وقد أثبت هودى الأكسفرى *Hody of Oxford* في ١٦٨٤ أن هذا الخطاب مزور (٤٥) .

المصريون الذين جردوا من ثروتهم وسلطتهم ، والذين كانوا يعيشون من الأموال التي تمنحهم إياها الدولة ، فقد ظلوا صابرين ينتظرون انحسار هذه الموجة اليونانية . ولم تكن الغلبة في الإسكندرية آخر الأمر للصبغة اليونانية ، بل كانت للنزعة الصوفية . ووضعت في ذلك الوقت أسس الأفلاطونية الجديدة وذلك الخليط من الطقوس المليئة بالأمانى ، والتي كانت تتنازع فيما بينها للاستحواذ على نفوس أهل الإسكندرية في القرون التي أحاطت بميلاد المسيح . وأضحى أوزريس في صورة سزابس الإله المحبب للمصريين في ذلك العهد المتأخر من تاريخهم ، وللكتيرين من اليونان المصريين ، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة ، ولما دخلت المسيحية البلاد لم يجد الكهنة أو الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسر ايسس .

افضل الربع

الفتنة

إن الدرس الذى نستفيده من نظام البطالة الاشتراكية هو أن الحكومة نفسها قد تستغل الناس . ثم إن هذا النظام قد سار مستقيماً إلى حد معقول في أيام بطليموس الأول والثاني ، فقد تمت في عهدهما مشروعات هندسية عظيمة ، وتقدمت الزراعة ، ونظمت عمليات البيع والشراء ، ولم يفرطهفتشوا الحكومة في الظلم والمحاباة ؛ ومع أن استغلال الحكومة للمواد والرجال كان استغلالاً كاملاً لا هوادة فيه فإن الجزء الأكبر مما عاد عليها من هذا الاستغلال قد استخدم في تزيين البلاد وفي إمداد الحياة الثقافية بما يلزمها من المال . ولكن البطالة شنوا الحروب وأنفقوا مقداراً متزايداً من مكاسب الشعب على الجيوش والأساطيل والوقائع الحربية ، وتدهورت طباع الملوك تدهوراً سريعاً بعد غلدلفس ؛ فقد انهمكوا في ملاذ الأكل والطعام والنساء وتركوا أزمة الحكم في أيدي السفلة الذين ابتزوا كل درهم من الفقراء ، ولم ينس المصريون قط أن هؤلاء المستغلين كانوا من الأجانب ، ولم يغب ذلك عن عقول الكهنة الذين كانوا يحملون بالحياة المترفة التي كانوا يستمتعون بها قبل سيادة الفرس واليونان .

وكان أهم ما يفهمه البطالة من الاشتراكية أنها نظام للإنتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق . فقد كان الفلاح ينال من محصوله ما يكفي لحفظ حياته ، ولكنه لا يكفي لتشجيعه على عمله أو إعانته على تربية أسرته . وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلاً بعد جيل ، ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة كما لا يطيق الأبناء متى كبروا الرقابة الدائمة التي يفرضها الأب المستبد عليهم . وكانت الدولة تقرض الفلاح البذور ليزرع بها

أرضه ولكنها كانت تقيد بالبقاء في الأرض حتى يجنى المحصول ، ولم يكن في وسع أى فلاح أن ينتفع بأى قدر من محصوله إلا بعد أن يؤدي ما عليه للدولة من التزامات وديون . ولقد كان هذا الفلاح صبوراً بطبعه . ولكنه رغم طبعه هذا بدأ يتذمر ، فلم يكده يستهل القرن الثاني حتى يارت مساحات واسعة من الأرض لعدم وجود من يزرعها ، ولم يجد مستأجرو أراضي الملك من يؤجرونها لهم ليزرعوها ، فحاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بزرعها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك العمل ، فأخذت الصحراء تزحف شيئاً فشيئاً على الحضارة . وكان العبيد يعملون في مناجم الذهب ببلاد النوبة وهم عراة ، في سرايب مظلمة ضيقة ، وأجسامهم ملتوية ، وهم مثقلون بالأغلال ، يسوقهم الملاحظون إلى العمل بالسياط ، طعامهم حقير لا يكاد يسد الرمق ، وقد هلك آلاف منهم من سوء التغذية ومن فرط التعب ، وكانت سلواهم الوحيدة في هذه الحياة هي الموت (٤٧) . وكان العامل العادي في المصانع يتقاضى أبله واحدة (بـبـبـب من الريال الأمريكى) في اليوم ، أما الصانع الماهر فكان يتقاضى أبلتين أو ثلاث أبلات ، ويستريح من العمل يوماً في كل عشرة أيام .

وعم الاستياء ، وازدادت الشكاوى ، وكثر الإضراب : إضراب بين عمال المناجم ، والمحاجر ، ورجال القوارب ، والفلاحين ، والصناع ، والتجار ، ثم تعدهم إلى الملاحظين ورجال الشرطة أنفسهم . ولم يكن الغرض من الإضراب زيادة الأجور ، فإن الكادحين قد نُسوا من هذه الزيادة من زمن بعيد ، بل كان الدافع إليه هو الإعياء واليأس . وتقول بردية تسجل إضراباً من هذا النوع : « لقد خارت قوانا ، وسنفر من العمل » أى أنهم سيعتصمون بأحد الهياكل (٤٨) . وكان كل المستغلين تقريباً من اليونان ، وكل الكادحين المستغلين تقريباً من المصريين أو اليهود . وكان الكهنة يشرون مشاعر الأهلين خفية باسم الدين ، على حين كان اليهود يعارضون في كل عمل تقوم به الحكومة لتخفيف الضغط عليهم أو على المصريين . ولجأت الحكومة في العاصمة إلى العطايا

وأسايب التسلية لرشو بها الجماهير ؛ ولكنها لم تكن تسمح لهم بدخول الأحياء الملكية ، وكانت تسلط عليهم قوة عسكرية كبيرة تراقبهم وتتجسس عليهم ، ولم تكن تسمح لهم بنصيب ما في إدارة شئونهم . وما لبثت هذه الجماهير أن أضحت في آخر الأمر جماعات من الفوغاء عيفة لا تحس بأية نتيجة (١٩) . وثار المصريون في عام ٢١٦ ولكن الثورة أخذت ، ثم ثاروا مرة أخرى في عام ١٨٩ ودامت ثورتهم خمس سنين . وسيطر البطالة على الموقف وقتاً ما بقوة جيشهم وازيادة هباتهم للكهنة ، ولكن الموقف كان قد تخرج إلى أقصى حدود التحرج ، لأن موارد البلاد نصبت عن آخرها ، حتى لقد أحس المستغلون أنفسهم أنه لم يبق فيها شيء يستغلونه .

وبدأ الاحتلال يذب في كل شيء ، فانتقل البطالة من الرذائل الطبيعية إلى الرذائل غير الطبيعية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلائيد وبسرعة أبقدهم احترام الشعب ، وانغمسوا في الترف انغماساً أعجزهم عن إدارة ذقة الحزب أو الحكم ، وأبقدهم آخر الأمر القدرة على التفكير . وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاماً بعد عام لخروج الناس على القاتون ، وقلة أمانتهم وعجزهم وبأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ، وتضعف الهمم والدوافع التي تبعها الملكية في النفوس . وذوي غصن الآداب ، وقضى على الفن المبدع الخلاق ، فلم تكد تضيف الإسكندرية إليهما شيئاً بعد القرن الثالث ؛ وقعد المصريون احترامهم لليونان ؛ وقعد اليونان احترامهم لأنفسهم ، إذا صح أن الإنسان قد يفقد احترامه لنفسه ، فنسوا على مر السنين لغتهم ، وأحلوا يتكلمون خليطاً فاسداً من اللغتين اليونانية والمصرية ؛ وأزداد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية ، فامتصتهم البلاد واندجوا في أهلها ، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية . وما وافى القرن الثاني حتى لم يعد اليونان هم الشعب المسيطر حتى من الوجهة السياسية ؛ ذلك أن البطالة اعتنقوا دين المصريين

واتبعوا طقوسهم ليحافظوا بهذا على سلطانهم ، وزادوا لهذا السبب عينه من سلطة الكهنة . ولما انغمس الملوك في الترف والملاذ بدأ الكهنة يستعملون سلطانهم ويثبتون قواعد زعامتهم ، واستعادوا عاما بعد عام الأراضي والمزايا التي سلّنها منهم البطالمة الأولون (٥٠) . ويصف حجر رشيد الذي يرجع إلى عام ١٩٦ ق . م الاحتفال بتتويج بطليموس الخامس وصفا لا يكاد يختلف في شيء عن المراسم المصرية القديمة ؛ وفي عهد بطليموس الخامس (٢٠٣-١٨١) وبطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥) أنهكت المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة قوة البيت المالك ، واطمحت الزراعة والصناعة غاية الاضمحلال ، ولم يعد الأمن والسلام إلى ربوع البلاد حتى جاء قيصر فاستولى على مصر من غير عناء ، ولم يكن استيلاؤه عليها إلا حادثا عاديا من حوادث حياته ؛ وفي عام ٣٠ ق . م . جعلها قيصر ولاية رومانية .

الفصل الخامس

شمس الحضارة اليونانية تغرب في صقلية

كانت قبله العهد الهلنستي هي الشرق والجنوب وكاد يغفل الغرب إغفالاً تاماً ، وازدهرت قوريني كالعادة وعمها الرخاء لأنها أدركت أن التجارة خير لها من الحرب . ونيغ فيها في ذلك العهد كلمخوس الشاعر ، وإيرتسنيز وكزنيدز الفيلسوفان . أما إيطاليا اليونانية فقد أضعفها وأقص مضجعها ازدياد سكانها وقوة رومة الناشئة ، وعاشت صقلية تتوجس خيفة من قوة قرطاجة ، وقام أغنياؤها بثورة بعد ثلاثة وعشرين عاماً من مجيء تمليون Timoleon فقبضوا على حكومة سرقوسة الديمقراطية ووضعوا زمام الحكم في أيدي ستانة من الأسر الأبرجكية (٣٢٠) . ولكن هذه الأسر ما لبثت أن تفرقت وكانت شيعاً ، وقضت عليها ثورة من المتطرفين قتل فيها أربعة آلاف نفس ، ونفى من البلاد ستة آلاف آخرون . ونصب أجشكليز Agathocles نفسه طاغية واستعان على ذلك بأن وعد بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضي (٥١) . وهكذا يصل تركيز الثروة من آن إلى آن إلى أقصى حد ، ولا تصلح الحال إلا بالضرائب أو الثورات .

ودامت الفوضى في سرقوسة أربعين عاماً غزا فيها القرطاجيون الجزيرة مراراً وتكراراً ، وجاءها پيرس ، وانتصر ، وهُزِم ، وخرج منها ، ثم سقطت لحسن حظها التي كانت غير جديرة به في يد هيرون الثاني Hieron خير الطغاة الكثيرين الذين أنتجهم عواطف أهل صقلية اليونان واضطراب نفوسهم . وحكم هيرون البلاد أربعة وأربعين عاماً « لم يقتل فيها مواطناً واحداً أو ينفيه أو يمسسه بأذى ، وذلك بلا جدال أعجب ما سمع به الإنسان » كما يقول پوليبوس (٥٢) . وكان هيرون يعيش عيشة متواضعة معتدلة رغم ما يحيط به من

أسباب الترف ، وقد عمر حتى بلغ سن التسعين . وأراد في مناسبات عدة أن ينزل عن سلطته ، ولكن الشعب توسل إليه أن يحتفظ بها^(٥٣) . وقد هدته حكيمته إلى أن يعقد حلفاً مع رومة ، وبذلك حمى البلاد من غزو القرطاجيين نحو تصف قرن من الزمان ؛ واستمتعت المدينة في أيامه بالسلم والنظام وبقسط كبير من الحرية ، وأقام منشآت عامة عظيمة ، وترك عند موته خزائنها عامرة بالمال دون أن يرهق الأهلين بالضرائب . وبفضل حمايته أو مناصرته رفع أركيديدز العلم القديم إلى أعلى ذروته ، وتغنى ثاوفريطوس ، باللغة اليونانية الفصيحة في أواخر أيامها ، بجبال صقلية وبعطايا مليكها المرتقبه . وأضحت سر قوسه وقتئذ أكثر بلاد هلاس سكاناً وأعظمها رخاء^(٥٤) .

وكان هيرون يسلى نفسه وقت فراغه بمراقبة صناعه وهم يعملون بإشراف أركيديدز في بناء سفينة لزهته ، تتمثل فيها جميع فنون بناء السفن وجميع العلوم التي عرفها الأقدمون . وكان طولها يبلغ نصف استديوم (٤٠٧ قدم) ، ولها سطح واسع للألعاب الرياضية ، ومدوسة للتدريب الرياضي ، وحمام من الرخام ، وحديقة مظلة ، جمع فيها كثيراً من أنواع النبات المختلفة . وكان فيها سبائة من الفلاحين يدفعونها بعشرين مجموعة من المحاديف ، وكان في مقدورها أن تحمل فوق هذا العدد سبائة من البحارة أو المسافرين . وكانت تحتوى على مقصورة ، صنعت أرض بعضها من الفسيفساء ، وأبوابها من العاج والأخشاب الثمينة . وكان أثاثها فخماً ظريفاً ، وزينت جدرانها وسقفها بالرسوم الجميلة والتماثيل ، وكان يحميها من الهجوم دروع وأبراج ؛ وكانت تمتد من أبراجها الثمانية كتل ضخمة من الخشب بكل منها ثقب في نهايتها تسقط منه الحجارة على السفن المعادية . وأنشأ أركيديدز بطول هذه السفينة منجنيقا عظيمًا يستطيع قذف حجارة زنة الواحد منها ثلاث ورنات (١٧٤ رطلا) أو سهام طول الواحد منها ثمان عشرة قدماً . وكانت هذه السفينة تتسع لحمل ٣٩٠٠ طن

من البضاعة ، وكانت زنتها وحدها ألف طن . وكان هيرون يأمل أن يستخدمها في الإسفاز المنتظمة بين سرقوسة والإسكندرية ، ولكنه وجد أن أخواتها لا تتسع لما ألفصخامنها ، وأن نفقاتها كثيرة ، فلأما بالجلب والسلك من حقول صقلية وبخارها الغنية ، وأرسلها هي وحوادثها هدية منه لمصر ، وكانت وقتئذ تعادى تقصاً في الجيوب غير عادى (٥٥).

ومات هيرون في عام ٢١٦ ، وكان يرغب أن يضع قبل موته دستوراً ديمقراطياً للمدينة ، ولكنه استمع في شيخوخته لرأى بناته فأوصى بالملك إلى بحفده (٥٦) . وتبين أن هيرونيموس Hieronymus هذا نذل ضعيف ، نبذ حاف زومة واستقبل وفوداً من قرطاجة ، وسمح لهم أن يكونوا من الوجهة العملية بحكام سرقوسة ، وكانت رومة لا تجد كفايتها من الجيوب فأخذت تستعد لقتال قرطاجة لتنتزع منها ثروة الجزيرة التي لم تتعلم في يوم من الأيام كيف تحكم نفسها . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط وقتئذ أشبه بالفاكهة العفنة على اعتماد لأن يسقط في يدي فاتح أشد بأساً وأقسى قلباً من كل من عرفهم تاريخ اليونان من الفاتحين .